

الأسطول والبحرية البيزنطية

الأسطول البيزنطي في المصادر البيزنطية

يعتقد البعض أن الأسطول البيزنطي لم ينل الاهتمام الذي ناله الجيش البري في بيزنطة ، فلا نجد اهتماماً بوضع كتاباً مصدرياً عن فنون الحرب البحرية في بيزنطة ، والمطلع علي كتاب الإمبراطور ليو السادس " فنون الحرب " لا يجد سوى القليل عن الحروب البحرية ، أما الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) فقد وردت له بعض المعلومات العرضية في كتابه " إدارة الإمبراطورية " مثل النار الإغريقية التي اعتبرها من أسرار الإمبراطورية ولا يجوز تقديم معلومات عنها لأحد ، وحتى المؤرخة آنا كومينا وضعت أمر الجيوش البرية في مرتبة أعلى بكثير عن القوات البحرية ولذلك فإن معلوماتنا عن البحرية البيزنطية هي أقل من معلوماتنا حول القوات البرية .

ولعل عدم اهتمام الإمبراطورية بالبحرية في بداية الأمر أن البحر المتوسط كان بحيرة رومانية ثم بيزنطية ولم يكن هناك ضرورة إلى وجود أسطول عسكري واكتفت الإمبراطورية بالأسطول التجاري ، كما أنه لم يكن معرضاً لأخطار خارجية بحرية سوى في مدينة القسطنطينية ، واكتفت الإمبراطورية بوضع قوات صغيرة لحراستها .

ومع ظهور بعض الاساطيل في البحر المتوسط مثل الوندال في شمال أفريقيا أصبحت حاجة الإمبراطورية ملحة لإعداد أسطول لمواجهة خطر الوندال الذين هاجموا روما عام ٤٥٥م . وإذا كان الإمبراطور جستنيان قد نجح في هزيمة الوندال في شمال أفريقيا فإن ذلك يرجع إلى الخطط العسكرية التي اعدّها القائد بلزاريوس وهي الخطة التي تجنب فيها مواجهة الأسطول الوندالي ، برغم أن الأسطول الوندالي كان قد اصابه الضعف في تلك المرحلة .

والحقيقة إن الفتوحات الإسلامية هي التي دعت الإمبراطورية البيزنطية إلى الاهتمام بالأسطول ، بعد أن امتلكوا جنوب البحر المتوسط ونمت قوتهم بفعل الفتوحات الإسلامية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، بالإضافة لجزر البحر المتوسط مثل قبرص ورودس والحلم الإسلامي باسقاط القسطنطينية عاصمة بزنطة ومستقر حكمها مما دفع الإمبراطور هرقلومن بعده باعادة الاهتمام بالأسطول البيزنطي ، يضاف إلى الخطر الإسلامي أن السفر براً داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية قد أصبح صعباً إلى حد ما ؛ فكان اللجوء إلى الطرق البحرية يجعل المواطنين البيزنطيين أكثر أمناً في تحركاتهم ونقل تجارتهم ولذلك كله انشأت الإمبراطورية ألوية الثغور ، وقد نجح الأسطول البيزنطي في صد الاخطار التي واجهت القسطنطينية عندما هاجمها المسلمون في عام ٧١٨م .

واثبتت البحرية البيزنطية قدرتها علي مواجهة البحرية الإسلامية ولكنها لم تستطع استرداد جزيرة صقلية من يد المسلمين وإنما نجحت في استرداد جنوب إيطاليا

من ايديهم وجاء في كتاب ادارة الإمبراطورية انه في عهد الإمبراطور بازيل الاول (٨٦٧ - ٨٨٦م) جاء المسلمون من أفريقيا في ست وثلاثين سفينة ووصلوا إلى ساحل الدماشيا واستولوا علي مدينة بوتوفا ومدينة روسا ومدينة ديكاترا ثم وصلوا إلى مدينة راجوزه وحاصروها طيلة خمسة عشر شهراً وتحت وطأة هذا الحصار أرسل إليهم الإمبراطور البيزنطي أمير البحر العظيم نيقيتاس أوريفاس علي رأس مائة سفينة حربية . وقد نجح هذا الأسطول في فك الحصار عن مدينة راجوزه واستعادة مدينة باري في جنوب إيطاليا بعد قتال استمر من ٨٦٦ - ٨٦٨ م .

نتائج تدخل القوات البحرية البيزنطية في شئون الحكم

ظهرت تلك المشكلة عندما أصبح للقوات البحرية شأنًا كبيراً فتدخلت في شئون العرش البيزنطي وخلعت الإمبراطور ليونتوس ٦٩٥ - ٦٩٨م وعينت مكانه أبيسمار المعروف باسم طيبيريوس الثاني (٦٩٨ - ٧٠٥م) . كما أن القوات البحرية تدخلت مرة أخرى وعزلت الإمبراطور جستنيان الثاني في عام ٧١١م . وتصادف زيادة خطورة القوات البحرية مع اضمحلال قوة البحرية الإسلامية بعد سقوط الدولة الأموية ، فتم نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد ، فرأى خلفاء الاسرة الأيسورية إلغاء القيادة العليا للأسطول وإنقاص عدد السفن البحرية حتى لا يكون هناك خطورة علي العرش .

مما لا شك فيه ان إنقاص قدر القوات البحرية كان عملاً لا يصب في مصلحة الإمبراطورية فإذا كانت البحرية الإسلامية قد ضعفت في الشرق إلا أنها نمت كثيراً في

شمال أفريقيا والأندلس وترتب علي ذلك سقوط كريت في أيدي المسلمين عام ٨٢٥ م ، وبدأ المسلمون من كريت يهددون سواحل بحر إيجه ، أضف إلى ذلك سقوط صقلية في عام ٩٠٥ م ومن هنا فكرت الإمبراطورية في إعادة الأسطول إلى سابق عهده وزادت في قدرته البحرية .

في أواخر عصر الاسرة العمورية نجد الإمبراطور ميخائيل الثالث وزوجته ثيودورا ومن بعدهم مؤسس الاسرة المقدونية بازيل الأول ٨٦٧ - ٨٨٦ م يعملون علي إعادة تنظيم القوات البحرية وإعادة الأولوية البحرية وأضافه لواءات أخرى مثل لواء ساموس نسبة إلى جزيرة تحمل الاسم نفسه تقع بالقرب من الشاطئ الأسيوي قرب الجزء الجنوبي الغربي وشمال جزيرة كريت . وتقرر وضع أسطول بحري كبير علي مقربة من العاصمة البيزنطية وتولي أمر الأسطول الأخير أمير البحر وكان من أعلى الرتب الوظيفية في الدولة .

اضمحلال الأسطول البيزنطي

يمكن القول ان البحرية البيزنطية بلغت ذروتها في تلك المرحلة ، وأصبح لأمراء البحر قوة كبيرة داخل الإمبراطورية فقد نجح أمير البحر رومانوس لسيكابينيوس في الوصول إلى عرش الإمبراطورية عندما تزوج من الإمبراطورة زوي أرملة الإمبراطور ليو السادس في عام ٩١٩ م ، ومن هنا تجدد الخوف من السلطة الكبيرة التي يتمتع بها أمراء البحر ، وبدأ العمل علي تخفيض قدرة القوات البحرية بحجة الاقتصاد في النفقات

وانه لم يعد في البحر المتوسط اعداء يخشي بأسهم والباحث في تاريخ البحرية البيزنطية يجد أن الإمبراطور بازيل الثاني قد كلف في عام ٩٩٢م جمهورية البنادقة بحراسة البحر الادرياتيكي ونقل القوات البيزنطية إذا دعت الحاجة .

وبعد ما قامت الإمبراطورية البيزنطية في المنفى واتخذت مدينة نيقية عاصمة لها ، أهتم الأباطرة بالعمارة البحرية ، وعندما عادت الإمبراطورية إلى القسطنطينية مرة أخرى في عام ١٢٦١م لم يكن لديهم غير أسطول صغير يكفي للدفاع عن اراضي الإمبراطورية في وضعها الجديد وهي التي كانت تتكون من مدينة القسطنطينية وما حولها وإمارة سالونيك وإمارة المورة ورغم الصورة المصغرة للأسطول البيزنطي والقوات المسلحة إلا أن حال البحرية كان أفضل من الجيش ، ولكنه أضعف من أن يصمد في وجه الجمهوريات أو القوميونات الايطالية مثل جنوه وبيزه والبندقية . ومن تبقي من القوات البرية والسفن البيزنطية لم تصمد في القتال الذي قام به الاتراك العثمانيين في الحصار النهائي للقسطنطينية عام ١٤٥٣م .

أهم أنواع السفن البيزنطية

١-الدرمونة : أو العداة وهي سفينة ثنائية أي أنها تعمل بصفين من المجاديف ويعمل عليها من مائتين إلى ثلاثمائة رجل ويبدا أنها كانت من السفن سريعة الحركة . وقد قدم لنا ليو السادس في كتابه فن الحرب والقتال ، جانباً طيباً عن وصف هذه السفينة وكيفية القتال عليها .

٢-البامفلية : وهي من طراز يختلف عن الدرمونة وهي ثنائية أيضاً واسرع حركة

كذلك وكان أمير البحر البيزنطي يتولي أمر قيادة الأسطول من علي مثل هذه

السفينة وبذلك عرفت باسم سفينة العلم .

٣-الشانيه : وتعرف أيضاً باسم الغليون وهي سفينة حربية كبيرة ومن أهم قطع

الأسطول عليها صفوف من المجاديف وتقام عليها الأبراج للدفاع والهجوم .

٤-الاشكيف : وهي نوع من الزوارق الصغيرة ويبدو انها كانت تعمل بين السفن

لنقل المواد في المواني أو حالة رسو السفن البحرية في ميناء الأعداء .

وبالإضافة إلى هذه الانواع من السفن فكثيراً ما لجأت الإمبراطورية إلى استخدام السفن

التجارية كما حدث في عام ٩٤١م عندما اغار الروس علي الإمبراطورية وربما يرجع

ذلك إلى عدم وجود السفن الحربية الكافية أو أن الأسطول كان مشغولاً بالقتال في مكان

آخر .

النار الإغريقية ودورها في الأسطول البيزنطي

كانت السفن تسليح بوسائل عدة ولعل أهمها النار الإغريقية التي تناولتها

الإمبراطور البيزنطي في كتابه "إدارة الإمبراطورية" الذي قدم فيه وصاياہ لإبنه ومن

ضمن هذه الوصايا ما ذكره عن النار الإغريقية وجاء فيها ويجب عليك أيضاً يا بني ان

توجه اهتمامك وتفكيرك إلى موضوع النار السائلة (النار الإغريقية) التي توضع داخل

القوارير وإذا ما طلبها احد كما تطلب منا كثيراً الان فما عليك الا الرفض والرد عليه

ببعض العبارات منها : ان النار السائلة تعلمها واكتشفها الإمبراطور قسطنطين الكبير

من الرب عن طريق الملاك ، وقد أخذ الله منه هذا العهد عن طريق هذا الملاك ، كما أكد لنا آباؤنا وأجدادنا الذين نثق بهم . وان هذه النار لا تصنع إلا بمعرفة المسيحيين وفي المدينة التي يحكمونها ويجب ألا ترسل أو تعرف طريقها إلى اي بلد آخر اياً كان ولكي يتأكد الإمبراطور قسطنطين ان خلفاءه سيحترمون هذا العهد فقد أعلن بان اللعنات ستحل بمن يتجرأ ويعطي هذه النار إلى دولة أخرى ويطرد من رحمة الكنيسة ولا يسمى مسيحياً ولا يقبل اي وظيفة أو عمل وإذا كان يشغل وظيفة ما يجب طرده منها ويوصم باللعنة . والحقيقة ان الذي اخترع النار الإغريقية شاب من مدينة بعلبك في لبنان الان يدعي كالنيكوس حوالى عام ٦٧٣ ، وكان الإمبراطور قسطنطين السابع يعلم ذلك جيداً ولكن ما ذكره لإبنه هو وضع الأمور في موضع الاسطورة التي تخيف الناس .

وواقع الحال ان المدن البحرية الكبرى في الإمبراطورية كانت مخازنها تحتوي علي هذه المادة ، ويذكر لنا المؤرخ ثيوفانيس في أحداث عام ٨١٣م ، في عهد الإمبراطور ميخائيل الاول (٨١١ - ٨١٣م) أن خان البلغار كروم استولي علي مدينة مسمبريا الواقعة علي البحر الاسود وأن القوات البلغارية استولت علي ستة وثلاثين قاذف لهب وكمية غير قليلة من النار السائلة (النار الإغريقية) ، وكمية كبيرة من الذهب والفضة ، وكان في ذلك كارثة عظيمة علي بيزنطة ليس بسبب الذهب والفضة ولكن خشية اكتشاف سر النار الإغريقية .

أما فيما يتعلق بفنون الحروب البحرية فيقول ليو السادس في كتابه فن الحرب ، يجب علي القيادة البحرية تجنب المعارك الفاصلة إلا إذا كان أسطول العدو في وضع

سئ وعليها اتخاذ الحذر في كافة العمليات الحربية مع استخدام المناوشات كلما امكن وكان يفضل ان تقاتل القوات البحرية في تشكيلة هلالية اي وضع السفن البيزنطية في شكل قوس ، ويجب تدريب البحارة علي اعطاء الاشارات التي كانت تتم بالاعلام أو استخدام النار ليلاً .

وعلي القيادة البحرية أن تكون علي معرفة تامة بالرياح واتجاهها والنوات البحرية ومواعيدها وعلي القيادة ان تتجنب السواحل الوعرة ، وليس لدينا بعد ما ذكره ليو السادس، اي بحث أو عمل أو كتاب فني يدرس بدقة العمليات البحرية وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد ورثت مجد روما فانهم ورثوه ليتغنوا به وقرأوه دون تحمس وانهم فضلوا اساليب الحرب البرية عن الحروب البحرية .

وفي عصر الحروب الصليبية استمر البيزنطيون يستخدمون النار الإغريقية كسلاح بحري يقذف اللهب علي السفن المعادية ، ففي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي تعرضت جزر البحر الايجي لاعتداء بعض سفن البيازنة التي تحمل الصليبيين إلى الاراضي المقدسة فأمر الإمبراطور الكسيوس الاول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) بإعداد السفن البيزنطية لمطاردة البيازنة كما أمر بتزويد الانابيب البرونزية التي تقذف اللهب بأطراف من حديد أو نحاس مطلي علي هيئة رؤوس حيوانات متوحشة وقد فتحت أفواهاها ليندفع منها اللهب المدمر . وكان غرض الإمبراطور إشاعة الرعب في نفس العدو ، وفي سنة ١١٠٣م دارت معركة بحرية بالقرب من جزيرة رودس استخدم فيها البيزنطيون النار الإغريقية ويبدو ان قاذفات اللهب كانت قد شهدت بعض التطور في

ذلك الوقت ، إذ يتضح من وصف المؤرخة المعاصرة آنا كومنين للمعركة ان انابيب قاذفات النار الإغريقية كانت مثبتة علي وصلات متحركة مكنت القائمين عليها من توجيه النار البحرية في كل اتجاه .

علي أيه حال رغم حرص البيزنطيين علي الاحتفاظ بسرية سلاح النار البحرية فإن الاسلحة لا تستمر سرية لفترة طويلة مع استمرار الحرب وما يصاحبها من انتصارات وغنائم للبعض أو هزائم وخسائر في العتاد والعدة للبعض الآخر . فلقد اشارت المصادر البيزنطية بفرع إلى وقوع ٣٦ جهاز لقذف النار الإغريقية فضلاً عن كميات كبيرة من النفط في أيدي البلغار سنة ٨١٢م ، وإذا كان البلغار لم يستفيدوا من الغنيمة لانهم لم يمتلكوا أسطولاً بحرياً فإن المسلمين كانوا اكثر استفادة من غنائم معاركهم البحرية ضد البيزنطيين . وفي كثير من الاحيان كان المسلمون يأسرون قطعاً من أسطول العدو بتجهيزاتها وهنا كانوا يقومون بعكسها اي بتحويلها إلى سفن اسلامية .

وقد لعبت النار الإغريقية دوراً مهماً في الصراع البيزنطي الإسلامي من أجل السيادة علي البحر المتوسط ، فقد ادي ظهورها كسلاح بحري لدي الأسطول البيزنطي في القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) إلى بروز عنصر قوة جديد أسهم في تحقيق الانتصارات البحرية كما انقذ مدينة القسطنطينية من السقوط في ايدي العرب المسلمين بعد حصارين مريرين ، بدأ الاول سنة ٦٧٤م / ٥٤ هـ زمن الخليفة معاوية بن ابي سفيان واستمر خمس سنوات ، أما الثاني فقد بدأ عام ٧١٧م / ٩٩ هـ في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك واستمر قرابة العام .

ويبدو ان المسلمين في غرب البحر المتوسط كانوا أسبق في التوصيل إلى استخدام قاذفات النار البحرية في سفنهم الحربية . ويرى بعض المؤرخين أن عصيان يوفميوس القائد البيزنطي لأسطول صقلية ولجؤه إلى الأمير زياد الله بن غالب سنة ٨٢٧م / ٢١٢هـ يترتب عليه نجاحهم في التعرف علي عناصر النار البحرية ، وتجهيز سفنهم بها أيضاً . وبالفعل كانت سفن الاغالبية التي اغارت علي البحر التيراني سنة ٨٣٥م / ٢٢٠هـ مجهزة بقاذفات النار . أما سفن الاساطيل الاندلسية فقد بدأ تجهيزها بالنار البحرية في سنة ٨٤٤م / ٢٣٠هـ . بالنسبة لشرق البحر المتوسط فالمرجح ان بعض تشكيلات السفن الإسلامية كانت مجهزة بهذا السلاح منذ أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) .

ولاشك ان توافر النفط في بعض اقاليم المسلمين كان من بين العوامل التي مكنتهم من استخدامه في اسلحتهم البرية والبحرية . وكانت آبار النفط تكثر في ايران وآذربيجان وصقلية . ويحدثنا أحد الرحالة في القرن الرابع الهجري عن عيون النفط التي توجد في باكوية من أعمال شروان (وهي اليوم باكو في جمهورية آذربيجان) . كذلك يصف لنا ابن الشباط التونسي طريقة استخراج زيت النفط من الآبار القريبة من سرقوسة علي الساحل الشرقي لجزيرة صقلية ، وكيف أن الرجل الذي ينزل في البئر كان يغطي رأسه ويسد أنفه وإلا هلك لساعته .

وجدير بالذكر ان المسلمين أفادوا من تراث الحضارات السابقة عليهم والمعاصرة لهم في تطوير اسلحتهم وفن قتالهم في البر والبحر ، ويبدو انهم اطلعوا علي مؤلفات

عسكرية بيزنطية ونقلوا بعضاً مما جاء فيها . ومن بين ما قاموا بترجمته إلى العربية الفصل الخاص بفن القتال في البحر الذي يعد جزءاً من كتاب تكتيكا الذي ألفه الإمبراطور ليو السادس . والمعروف ان الإمبراطور تناول في هذا الفصل النار البحرية دون ان يفصل كيفية قذفها علي الاهداف المعادية . ولقد ذكر ابن المنكلي انه طالع هذه الترجمة بنفسه واقتبس منها في كتابه المعروف بكتاب "الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر " كانت النار البحرية تمثل إضافة مهمة إلى تكتية القتال في البحر في العصور الوسطي . وكان امتلاك بيزنطة لها في البداية من بين العوامل التي ساعدتها علي الاحتفاظ بسيادتها علي مياه البحرين الاسود والمتوسط حتي مطلع القرن التاسع الميلادي . وعندما توصل المسلمون إلى استخدام هذه النار وتجهزت اساطيلهم بها في العقد الثالث في نفس القرن ، فانهم قاموا بحملات ناجحة في غرب البحر المتوسط وشرقه ، كان لها أكبر الاثر في القضاء علي ما تبقي لبيزنطة من سلطان وتجاري في آخر الأمر .

من المرجح ان أهمية النار البحرية أخذت تقل بشكل ملموس ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي لدي البيزنطيين والمسلمين علي حد سواء وترجع أسباب ذلك بالنسبة للدولة البيزنطية ، إلى اضمحلال قوتها البحرية وعجزها عن الحصول علي إمدادات كافية من النفط بعد تقلص اقاليمها في الشرق وانحسار نفوذها في منطقة القوقاز ، فضلاً عن سيطرة الجنوية علي حركة الملاحة في البحر الأسود ، أما بالنسبة للمسلمين فقد أدي استيلاء النورمان علي جزيرة صقلية في أواخر القرن الحادي عشر

الميلادي ، فضلاً عن وصول المغول إلى منابع النفط في إيران وآذربيجان في القرن الثالث عشر الميلادي إلى اضطراب وتوقف إمدادات النفط الواردة إلى أساطيل المسلمين في غرب وشرق البحر المتوسط .

علي أية حال ، شهد القرن الثالث عشر الميلادي أيضاً طفرة أخرى في مجال الكيمياء عندما اكتشف المسلمون خصائص جديدة لنترات البوتاسيوم التي تعرف أيضاً بالملح الصخري أو ملح البارود ، وأدى التوصل إلى قوة البارود الدافعة إلى تطور خطير في صناعة الأسلحة النارية والمدافع ، خاصة بعدما تبين ان قذائف المدافع تحدث تدميراً أكبر من قاذفات اللهب في معارك البر والبحر .